فصول ملخصة فى الفلسفة الألمانية

٧ – تطور الحركة الفلسفية فى ألمانيا

للأســـتاذ خليل هنداوى

أما الأنسان فهو عند هيجل الـكائن الفرد الذى يتوسط بين الـكائنات كيف يشاء ، ويُدرك نفسه بنفسه . الأنسان هو روح : روح ذاتية لا تحس إلا بحريتها الخاصة ، ولا تعمل إلا على مايضمن لها النصر على ما حولها . وروح اجتماعيــة تحترم حريات الناس وتراعى حقوقهم . وروح مطلقة تسمو على التقاليد المـادية ، يفنى إزاءها كل شىء من كل شىء تواضع عليــه الناس . روح تعود الى نفسها لتجد فى نفسها « المثال الالــهى » فلا تجده غرضاً تسمى اليه ولـكن تجده حقيقة شاملة أدركتها فيما أدركت . . .

وقد وجد هيجل ثلاث شعب فى العلوم : العلوم النفسية ، والعلوم الأدبية ، والعلوم الدينية . . . وقد شطر العلوم الدينيــة ثلاثة فروع : الفن ، والدين ، والفلسفة ؛ أما الفن فهو أول تجربة قام بها الروح ليتشبه بالوجود ، فالفنان يذهل عن نفسه حين يتأمل فى عمله . والفن – فى الحقيقة – هو يقظة من يقظات الوحى ولمة من لمات العبقرية . والدين يفسر معانى الألوهيــة برموز وألغاز . وفى النهاية وجد الأنسان ربه فى نفسه ، وهاهنا تسامى الدين الى الفلسفة ، وولد الالــه فى روح الأنسان ، وتألف العلم المطلق ، وبسط به الأنسان سلطته على الـكون ، وأدرك به غرضه . هذا هو الفيلسوف الذى يستطيع أن يغلق كتاب الوجود

دام انتصار مدرسة « هيجل » خمسة عشر عاماً ، لا تسمع فيها إلا صوت هذه المدرسة التى ملـكت على القوم ، وفرَّت من وجهها كل مدرســة ؛ ثم أخذت تهوى عن عرشها لأن العقل المخدَّر آن أن يصحو ، فبدا له ما فى هذه الآراء – برغم اشتهار صاحبها بقوة عارضته وقوة منطقه – من تناقض واضطراب . فى عالمه السياسى والالــهى قد ظهر الاختلاف على أشده ، وجد « هيجل » فى صاحب الديانة المسيحية شخصية سامية يمازجها روح الالــه . ولـكنه فى فصل آخر يقر بأنه لا يجد فى الدين إلا تعاليم آخذة طريقها الى الفلســفة ، حيث تفنى فى الفلسفة كل عناصر الايمان . وأما آراء « هيجل » فى التاريخ فهى آراء عقلية ، يتحدث بها عن عقل الفرد وعقلية الأمم ، ويرى تاريخ الحرية هو تاريخ العالم . أما العصر الشرقى فهو عصر الحـكم المطلق ، والعصر اليونانى الرومانى هو عصر الحرية الجزئية وعصر الأحزاب والاسر والعبودية ، والعصر الجرمانى هو عصر النهضة والبعث والثورة ، ويقبل هيجل على العصر الحديث ويذكر أن الدولة هى هيئة من هيئات الفـكر ، ولا بد لهذه الهيئة أن تتمثل فى صاحب السلطة والسلطان . وهو لا ينصر مذهب توزيع السلطة خشية أن يثير ذلك الضغائن ويخلق الفتن ويوقع العراك فى الأهواء . وهو يقدم لنا – بعد هذا الحوار الطويل – حكومته البروسية بعد معاهدة (١٨١٥) مثــلاً سامياً للدولة . وهكذا لا يمكن للفيلسوف أن يتجرد من نعرته القومية حتى فى المباحث التى ينبغى لصاحبها أن يكون مجرداً بعيداً عن الهوى

مذهب المثال الكمالى .

وأخيراً ماذا ظل راسياً من مدرسة « هيجل » فى الصرح الفلسفى ؟ أم ماذا بقى من ذلك الأتجاه المنيف نحو فلسفة « الواحد المطلق » الذى جرى وراءه فيخت وشيلنج وهيجل ؟

إن « كانت » فى كتابه نقد العقل المجرد أجاب بأن معارفنا لا تضع لنا جواباً شافياً عن حقائق الأشياء ، ولـكنها تقرب لنا صورها بطريق الحواس ، وهـذا الوجود لا نراه على حقيقته التى هو عليها ، وإنما نراه على الحقيقة التى تبدو لنا منه . وجاء فيخت بعــده فجعل من (الذات) ملجأ للحقيقة كلها . والأشياء الخارجة عن كياننا لا يُكتب لها الظهور إلا فى اللحظة التى تعالجها الذات وتمعن فيها تفكيراً . والأنسان بما أوتى من

وإذا الروضُ هامدٌ ما أفادتْهُ شآبيبُ دمعيَ الهتَّان
أيها الروضُ إن ما بكَ أوهى عَزَمَاتى وهدَّ من بُنيانى
داؤكَ الهجر والحبيبُ عَصِيٌّ والليالى تُغريه بالحرمان
فاذا ما جَهِدْتُ فى بعثِ ماضيكَ رمانى الزمان بالخذلان
والزمان العنيدُ إن سدَّد الرَّمْيَةَ أَلْوَى بحيـــلة الإنسان
يا إلهَ السماء إنى تحطَّمْتُ وما زلتُ فى ربيع زمانى
وذَوَتْ مهجتى من النَّغَم الباكى فمن لى بأعذب الألحانِ ؟

فريد عين شوكة

عزم وقوة لم يكن يوماً بكائن بسيط يدفع القوى المحدقة به ، ولكنه يريد أن يُسيطر على العالم حتى يتمكن من شعوره بنفسه . ولكن ماذا آلت اليه الطبيعة — فى مذهب فيخت — ومعانيها المتدفقة الحساسة ؟ إنها قد صُرعت وتجردت من كل المعانى ، فجاء شيلنج فعمل على مزج الفلسفة بالفن ، وجرّب أن يوحد بين العالم والكائن المفكر . الأنسان والطبيعة يجب أن يتحدا ويكون واسطة اتحادهما العقل المفكر والأحساس بالجمال . . . وهكذا عاد مذهب سبينوزا القائل بأن الله إنما هو كل الكائنات ، عاد هذا المذهب بصورة أوسع أفقاً من صورته الأولى ، يتوسع فى الحرية الأنسانية ، وينطوى على فكرة فنية

بلى ، إن مذهب المثال الكمالى الذى دان به الفكر الألمانى مصدره المذهب القائل « بأن الاله الواحد إنما هو كل الكائنات » وهذا « هيجل » هو الذى ثبت هذا المذهب بدستوره الذى جاء وليد جهود رفيعة تريد أن تشيد العلم الأنسانى ، ثم تبلغ بهذا العلم نفسه منزل الحقيقة السامية . فتطور الحياة العضوية فى الطبيعة ، وتعاقب الأصول البشرية ، وتتابع المدنيات فى التاريخ إن هى إلا وجوه متقلبة لأصل واحد . وهذه هى الدائرة التى يجوزها الفكر المطلق عاملاً على تحقيق قوته المبدعة ، وراجياً فى النهاية أن يتم تعارفه مع الروح الأنسانية ... الاله لم يكن ... ولكنه عاد ... وُولد فى الأنســـان . إن معنى الوجود هو أضعف معنى ؛ وهل معناه إلا أن تبدو لحظة من الزمن على مسرح هذا العالم المتبدل ثم تعود الى أصلك ؟ كل شىء يزول يدل على أن فكرة بزواله تمت ، أما حركة الحياة فانها تهمد فى معنى مجرد لا تدركها الأنظار

إن فلسفة هيجل حين جعلت من الروح الأنسانية ملجأ كل معرفة ووعاء كل حقيقة ، أصبح المتـــدين بها يعرف الروح الأنسانية ، ولا يعرف مما حولها شيئاً ؛ هو يزعم أنه يحلل الكون ويعلل حوادثه ويشيد دعائمه بفكره ، ولكنه فى الحقيقة لا يتخطى — فى ذلك — حدود العالم الصغير الذى يضم الأنسان عليه جوانح صدره

* * *

لابد لمن أراد أن يلم بتطور الأدب الألمانى فى منتصف القرن التاسع عشر أن يقع على أسباب تلك السآمة التى تمشت فى عروق ذلك الأدب . فى غرة هذا القرن اقتحم « نابليون » ألمانيا ، وغلبها على أمرها ؛ فأذعنت أو همدت قليلاً والنار تسطع خلل الرماد ، وهى فى الحقيقة لم تنفض عنها أملاً ولم تدفع مأملاً ، والحركة الفكرية التى ولّدها أولئك الفلاسفة تدل على أن مرماها لم تزغ عنه الأبصار ، وأن آثارها لم يطمس عليها طامس ؛ وبعد حبوط تلك الآمال النازعة الى حرية الشعب الألمانى ولم شعثه بعد التفرق ، خيم على الجبهة الألمانية شبه سكون لا يتمخض بحياة ؛ ولكن الأدب لا يموت ، ولكنه يثور ويتحرك فى الأقطار المذللة حيث ترى أصحابها مدفوعين دفعاً الى الحياة ، والتاريخ وحده ظل دائباً ساعياً وراء الغاية دون أن يقف سيره شىء ، أما صوت الشعر فقد خفت ، والمخيلة نامت الى حين

فى هذا العصر وجدت فلسفة « هيجل » مزاحماً جديداً عنيفاً ، هو تشاؤم « شوبنهاور » ومما ساعد على انتشاره قوة بيان صاحبه ، وهيجل كان أسلوبه غير بيانى ، فتهافت الناس بعقولهم وقلوبهم على المذهب الجديد

ما قامت فلسفة أذيع وأسير من فلسفة « هيجل » ، فقد كانت تياراً قوياً تقذف بالنفوس الى مسكن « المثل الأعلى » ولكن تأثيرها سرعان ما وهى ، وكان لهيجل أنصار كثيرون أخذوا عنه وحملوا مبادئه الى أقطار أخرى ؛ حتى إذا وافاه أجله ذهب البعض الى مقارنته بالاسكندر الذى غزا أقاليم مجهولة ، وبعضهم ذهب الى تمثيله بصاحب الرسالة المسيحية ، وفكرة «هيجل» هى مذهب التحول المستمر ، والعالم — عنده — هو كالنبتة تنجم دائماً من أصلها ، وتحمل فى بعض الأحيان براعيم وأزاهير وثمرات . . . . .

وبعد موت « هيجل » انشقت مدرسته وقام منها ثلاث فرق : فريق عكف على تحليل مذهبه وتطبيق فروعه على بعض فروع علمية وأدبية ، وقد هذب هذا الفريق من أسلوب معلمهم حتى أخرجوه من حلقة الخاصة الى متناول العامة ؛ وفريق أراد أن ينزع عن فلسفة «هيجل» كل أثر من مذهب سابق ، وأن يرد كل أصولها الى الدين ؛ والفريق الثالث نظر الى « هيجل » نظرة مستقلة ، ووجد أن الدين المسيحى قد انتهى به ، كما انتهى العصر الوثنى اليونانى بأرسطو ، والكلمة التى رددها أحد تلاميـــذه : « لتكمل إرادة الرجل » تعتبر أول قاعدة فى بناء شريعة المستقبل

يتبع خليل هنداوى